مجلة "مدارات في اللّغة والأدب" الصادرة عن مركز مدارات للدراسات والأبحاث، تبسة–الجزائر.

المجلد01 . العـدد: 05 . السنة 2021، ص 93– 112
ISSN 2661-765x

وهم النظرية النقدية التكاملية بين العرب والغرب"دراسة مقارنة بين التطلع العربي والمشروع الغربي"

The integral critical theory delusion between Arabs and Westerns "A comparative study between the Arab forward and the Western project"

د. نجلاء نجاحي *

جامعة قاصدي مرباح ورقلة ، الجزائر.

البريد الإلكتروني: nedjelanedj@gmail.com

ملخص البحث

من القضايا الملحّة في نقدنا العربي الحديث قضية الهوية النقدية التي تعني الإنفراد بنظرية نقدية تلائم خصوصية أدبنا ونقدنا العربي، والكشف عن الأصالة الفردية للأديب، ومن الأولويات الواجبة تحرير الذات العربية من أسرها التاريخي، والفكري والاجتماعي بنقد الذات والتراث، وخاصة ما يقوم على النقل دون العقل، ونقد المستقبَل من النظريات والأشكال الحداثية ،ذلك التطلع لإيجاد منهج نقدي تكاملي عند ثلّة من النقاد،وعند ستانلي هايمن الذي يبشّر بالمنهج التكاملي، ويراه منهجا مرِنا، وفي المقابل يقف نقاد آخرون رافضين لهذا المنهج معتبرين إياه بدعة منهجية ، مما يدفعنا إلى التساؤل عن إمكانية قيام نظرية نقدية عربية تتلاءم وخصوصية أدبنا العربي؟وعن خصائص نظرة الناقد ستانلي هايمنالتكاملية؟ أو على الأقل : ماهي الآليات التي ينبغي الاسترشاد بها،وتبيّنها لتطبيق النظريات النقدية الغربية على أدبنا العربي وفقا لخصوصيته؟ وهذا البحث يكشف جهود عدد من النقاد العرب مقابل جهود هايمنفي نظرته المسلّحة والتي يرسم فيها ملامح الناقد المثالي.

الكلمات المفتاحية : الهوية النقدية ، النظرية النقدية ، التكاملية ، النقد العربي ، النقد الغربي ، مقارنة

Abstract:

Among the most important persistent critical issues in the Arab modern criticism is the critical identity,which signifies individuality and excellence in Among the most important persistent critical issues in the Arab modermodern criticism is the critical identity, which signifies individuality

* المؤلف المرسل: د. نجلاء نجاحي nedjelanedj@gmail.com

and excellence in an appropriate critical Theory to our Arab criticism and literature specificity, besides revealing the literati's individual originality. Among the priorities is that the Arab ego should be liberated from its historical, intellectual, and social captivity through the ego criticism and the patrimonial criticism, especially what's based on writing without cognition and criticizing the received theories and the modern forms.This aspiration for finding an integral method is with a group of critics and the critic Stanley Haiman, who promises with the integral method, and he considers it as a flexible method. Conversely, other critics refuse this method, and they consider it as a methodological hearsay. So,our questions are: Is there a possibility to the emergence of an appropriate Arab critical theory to our Arab literature specificity? What are the critic Stanley Haiman's integral perspective features? Or at least what are the useful mechanisms to be adopted for applying the Western theories on our Arab literature according to its specificity?This research reveals a groupe of Arab critics and Heiman in his equipped perspective designing the idea integral critic.

Key Words: the critical identity, the critical theory,the integration,the arab criticism, The western criticism,the compariso

مقدمة:

شهد النقد العربي في العصر الحديث حركة نقدية مصحوبة بسعي حثيث لبعث التراث العربي،و انعكست هذه الحركة في عدة آثار نقدية من أهمها:مقدمة ترجمة إلياذة هوميروس لسليمان البستاني وتاريخ علم الأدب عند الإفرنج والعرب، وفكتور هوجو لروحي الخالدي ومنهل الورّاد في علم الانتقاد لقسطاكي الحمصي، وكتاب مقدمة لبلاغة العرب لأحمد ضيف ، والوسيلة الأدبية لحسين المرصفي، حيث مثل هؤلاء نقطة تحول في تاريخ النقد العربي ، وهمزة وصل لمرحلة تلت هذه المرحلة و أفرزت جيلا آخر من النقاد مثل: طه حسين، والعقاد ، وميخائيل نعيمة، وعبد الرحمن شكري ، والمازني، وزكي مبارك، حيث كون بعض منهم جماعات ومدارس أدبية مثل: جماعة الديوان ،وأبولو و الرابطة القلمية والعصبة الأندلسية، وانتجو آثارا نقدية مهمة كالغربال، وأبولو، والديوان، وقد كونو تيارا ووعيا نقديا وأدبيا ذو مشربين تراثي تقليدي من جهة، وانفتاحيا على المناهج والتيارات الفكرية

النقدية والأدبية الغربية من جهة أخرى، ويمكن تلخيص الموقف النقدي في الربع الأخير من القرن العشرين في جانبين:

جماعة القدماء والتقليديين المتمسكين بالنظريات التقليدية، ومن روادها مصطفى الصادق الرافعي الذي شنّ حملة شعواء على كل خارج عن الأساليب البلاغبة القديمة، و على كل مجدد معتبرا إياه خطرا على التراث العربي و الإسلامي .

وتمثل الجانب الثاني في المجددين وأنصار التجديد وعلى رأسهم طه حسين الذي نحا في اتجاهه نحو فلسفة ديكارت في كتابه(في الأدب الجاهلي)، ولكنه لم يحد كثيرا عن أصول البلاغة والنقد العربيين وجماعة الديوان التي مثلها المازني والعقاد وشكري، حيث استغرقت في تقويم أعمال التقليديين الأدبية مستعينة بقراءات ومراجعات أجنبية في الفلسفة والاجتماع وعلم النفس ،و في هذه الأثناء ظهر أيضا كتاب "وسائل النقد "لرمزي مفتاح، وقد ناقش فيه النتاج الأدبي في ظل المبادىء الفيزيولوجية والاجتماعية والنفسية وعلى رأسهم البارودي وإسماعيل صبري، وفي مجال الكتابة إبراهيم المويلحي، والذين فهمو الأدب في حدوده البلاغية بحصره في الاسلوب المجرد و الأسلوب المعاد تجريده.[1]

وفي سنة 1932 ظهر كتاب"مهمة الشاعر في الحياة" لسيد قطب ويحوي كلاما عاما عن الفنون الجميلة ومهمتها، وعن الفرق بين الشعر و الفلسفة، وعن عنصر الخيال في الشعر، ورغم ثقافته واطلاعه على مؤلفات كروتشيه، وسانت بيف، وريتشاردز، إلا أن ذلك لم ينعكس على نقده وقد ازدادت الحاجة الفكرية والفنية لمنهج نقدي عربي، لكن كل الجهود ضاعت بين الدعوات النظرية المؤمن أصحابها بأن النقد الملائم لم يظهر بعد، وبين دراسات بلاغية يؤكد أصاحبها بأنها تغني عن النقد، في ظل هجمات التقليديين على تلك المحاولات النقدية للعقاد ،و طه حسين، والمازني والتي ظهرت في مجلات "البيان "و "العصور"و "المقتطف"و"الهلال"والتي كانت توجهه للترجمة والتأليف التأصيلي، فظلت مجرد انطباعات وأفكار تدور في فلك غير منظم ولامحدد وخاصة في ظل تزايد

[1] - أحمد كمال زكي:النقد الأدبي الحديث " أصوله ومناهجه"، الهيئة المصرية العامة للكتاب، د.ط، 1972، ص: 36.

الاتصال بالغرب، إلى ان ظهرت دعوة أحمد أمين سنة 1926،واستمرت طوال عشر سنوات بالدعوة إلى ضرورة ربط مؤلفات النقد والبلاغة العربية بما كتب في أوروبا في النقد الأدبي[2]، وآزره في ذلك طه حسين وأمين الخولي ، وأحمد الشايب ، وطه أحمد إبراهيم ،ومحمد النويهي ،ومن الجهود العربية لإيجاد نظرية نقدية عربية نذكر :

- طه أحمد إبراهيم: في تاريخ النقد العربي من العصر الجاهلي إلى القرن الرابع الهجري سنة 1937، و قد رأى فيه أن النقد العربي لا يزال تجميعا لما ورد في ثنايا الكتب القديمة وامتدادا لأفكار الرافعي وتشربا للمظاهر الخارجية دون التعمق فيها، كما أنه لم يتعرض إلى أصول النقد كعملية التنظير ، و ظلت كثير من القضايا الفنية مطروحة للنقاش.
- أحمد الشايب :"الأسلوب" 1939، وكتاب "أصول"النقد الأدبي 1940 :والمؤلفان يحويان دعوة لضرورة النهوض بالدرس البلاغي العربي، وتحويله إلى نقد أدبي ، والملاحظ أنه استعار آراء وينشيستر((winchisterفيكتابه " أصول النقد الأدبي"و آراء جينينغ في كتابه "أصول البلاغة"، و آراء ماثيو أرنولد matthew Arnold)))و برونتيير brunetiere)) .
- أمين الخولي:" فن القول": وقد حاول فيه تأصيل النقد الأدبي وسعى إلى تطويره ،وإعطائه الأبعاد المناسبة ليتحرك من أجل التقدم الفني المطلوب، كما أنه لم يهمل الموروث الشعبي ودوره، إضافة إلى دعوته لأن يكون العمل الأدبي مظهرا اجتماعيا يعكس طبقة مؤلفه و منزلته الاجتماعية ،وأكد على ضرورة الرجوع إلى البيئة العامة للأديب قبل التطرق إلى بيئته الخاصة وقد تم اعتناق عدة مذاهب نقدية غربية وتم الاغتراف منها في علاقة يفترض أن تكون تكاملية تقوم على مبدأ التأثير و التأثر–وكما أسلفنا– فإن العلاقات النقدية والأدبية بين العرب والغرب في العصر الحديث تعود إلى تلك البعثات الطلابية المصرية إلى أوروبا للدراسة، وما تمخض عنها من مكتسبات علمية ، وفنية إذ اتخذ المبتعثون إلى أوروبا من المناهج الغربية منهلا تشربوا منه

[2]– المرجع نفسه ، ص: 36.

فلسفتها وخلفيتها النظرية والثقافية والإيديولوجية من باب الانبهار من جهة والعوز الفكري من جهة آخرى ،و هذا الانبهار لم يكن ذا أثر إيجابي حيث توقف عند حد الأخذ من الآخر دون العمل على تطوير الحركة النقدية العربية، فكان موقف النقاد العرب من النقد والفكر الغربي"موقف استحذاء بل إن بعضهم يعتقد اعتقادا جازما أننا أقل موهبة من شعراء الغرب وإن علينا أن نغترف نظرياتهم ونأكلها أكلا إذا نحن أردنا أن ننشئ شعرا ونقدا عربيا "[3]،وقد نتج الاستغراق في هذا الحال القائم على التبعية والعجز عن الإتيان بأي جديد شبه قطيعة مع التراث الأدبي و النقدي العربي، مما أوقع الناقد العربي في مأزق التبعية النقدية التي تتصل و تتأثر بالتبعية الفكرية و السياسية و الاجتماعية ، وظل مطلب الناقد العربي ملحّا لإيجاد نظرية نقدية عربية يتم من خلالها الإحاطة بالأعمال الأدبية، وظهرت تطلعات عديدة لتقديم نظرية نقدية لتفسير الأعمال الأدبية، وذلك بتسخير جميع المدارس النقدية المناسبة في تكاملها، وذلك من خلال الاستعانة بأهم أدواتها والتشديد على ضرورة التسلح بآليات المناهج المعروفة في مسيرة النقد، والتحكم فيها ، كما ظهر فريق من النقاد يساوي بين تعدد المناهج واللامنهج ،وبين هذه الآراء المتعارضة، وكثرة الانتقادات والتغيرات التي سلطت على أغلب المناهج يثار سؤال جوهري عن ماهية المنهج التكاملي، وعن آلياته وطريقة التركيب بين عدة مناهج لتستوي منهجا يفي بحاجة النقد ؟ وماهي الآليات التي ينبغي الاسترشاد بها، وتبنيها لتطبيق النظريات النقدية الغربية على أدبنا العربي وفقا لخصوصيته ؟ وماذا عن مشروع ستانلي هايمن وإمكانية تطبيقه في الواقع النقدي ،وماهي خصائص نظرته حول إيجاد ناقد مثالي ونقد جماعي ؟

[3] – نازك الملائكة: قضايا الشعر المعاصر ، دار العلم للملاين ، بيروت ،لبنان ،ط:5، 1978،ص:335.

1. المنهج التكاملي بين العرب والغرب:

1.1. مفهوم المنهج التكاملي:

تعددت الآراء والتسميات لهذا المصطلح عند النقاد العرب والغربيين أهمها: المنهج التكاملي المتكامل، المركّب، التركيبي المتعدد، الديمقراطي، الحواري، المفتوح، اللامنهج، منهج من لا منهج له، أي منهج منلا يركن إلى منهج واحد، إنما من يغمس قلمه في كل المناهج، والمحابر يمتح منها مايفيد، ويغني ويعمق النص الذي بين يديه[4]، والمنهج التكاملي مشتق في مصطلحه من النظرة المتكاملة لدراسة وتحليل الأعمال الأدبية، فهو لايتقيد بمنهج واحد بل يستعين بجملة من المناهج في علاقة تركيبية بينها انطلاقا من أن النصوص مجموعة من الظواهر المركبة والمتشابكة ذات الجوانب والأبعاد المركبة [5]، والتكامل "ليس توفيقا بين عدد من المناهج، أواصفاء أفضل ما في التراث النقدي العربي أو في المناهج الغربية،إنه خلية حية تتشكل من ذاتها:التراث والمعاصرة ومن حاجتها الماسة إلى الضوء، والهواء، حتى تبقى خصبة ونظرة، فتنفتح الرؤية على الآخ" [6]، ويعرفه الناقد يوسف وغليسي بأنه"ضرب مختلف من ضروب النقد، لا يتقيد بمنهج واحد خلال العملية النقدية بل يستعين بجملة من المناهج التي يقتضيها الطابع التركيبي المعقد للنص الأدبي...ولعل الفرق بين سائر المناهج كالفرق-في عالم السياسة- بين حكومة الحزب الواحد وحكومة ائتلافية تجمع وزراء من أحزاب مختلفة "[7]،وقد اصطلح عليه"هايمن"بعدة مصطلحات كالنقد مجمّعا أوالنقد مكثّرا أو متعدد المستويات، كما يسميه النقد الاستمراري وقد حدد له عدة مستويات كالمستوى الفردي أو الذاتي والاجتماعي الموضوعي أوغير الذاتي، ومستوى اللاوعي الجماعي الذي يقول به"يونغ".

---

[4] – يوسف وغليسي: مناهج النقد الأدبي " مفاهيمها ، أسسها، تاريخها، روادها ، وتطبيقاتها العربية" جسور للنشر والتوزيع ، الجزائر، ط: 1، 2000، ص : 34.

[5] – سمير سعد جازي: النقد الأدبي المعاصر، دار التوفيق للطباعة والنشر والتوزيع ، عمان ، الأردن، ط: 1، 2007، ص: 32.

[6] – إبراهيم أحمد ملحم: النقد التكاملي – إشكالية الخطاب- عالم الكتب للنشر والتوزيع ، الأردن، ط: 1، 2014، ص: 38.

[7] – يوسف وغليسي: مناهج النقد الأدبي ، ص : 34.

1.2. المنهج التكاملي عند العرب:

كان الاتجاه إلى هذا المنهج وليد الرغبة في تكوين منهج يحيط بشتى جوانب العمل الأدبي عبر تفاعل وترابط العلاقات بينها فالنص الأدبي تربه عدة روابط داخلية في وحدة موضوعية ، لذلك كان هدف المنهج التكاملي الإحاطة بالعمل الأدبي بالاستناد إلى عدة مناهج في مقدمتها المناهج السياقية: الاجتماعي، والتاريخي، والنفسي، والمنهج الانطباعي، والذوقي في "علاقة انسجام بحيث لا تنفي هذه العلاقة أحدها، ولا تحول دون التردد بين طرف وآخر، فنحن في تنقل مستمر بينها وهو ذو أنماط متعددة يمكن تقسيمها إلى فئتين: فئة تحقق التكامل بين الخاص والعام ، وفئة تحقق التكامل بين الظاهر والباطن"[8]،وقد تطرق سيد قطب إلى المنهج التكاملي في كتابه" النقد الأدبي – أصوله ومناهجه– وتحدث عن المنهج الفني الذي يتكامل فيه منهجان أو ثلاثة وهي: المنهج التأثيري، والتقريري، والذوقي أو الجمالي، وأضاف ضرورة الملاحظة النفسية والتاريخية معلنا أنه من محاسن النقد العربي أنه سلك في أحيان كثيرة طريق المنهج المتكامل الذي يجمع هذه المناهج جميعا وذكر أن طه حسين في كتبه عن المعري، والمتنبي ، وحديث الأربعاء ، والعقاد في كتابه ابن الرومي وشاعر الغزل، وجميل بثينة ،وشعراء مصر وبيآتهم في الجيل الماضي قد سلكا هذا المنهج ، وأقرّ أنه كذلك يسلك هذا المنهج في كتبه[9]، وقد اعتبر أن هذا المنهج لا يعد النتاج الفني إفرازا للبيئة العامة ولايأخذ النتاج الأدبي بوصفه إفرازا لسيكولوجيا محددة البواعث، معروفة العلل، ويتعامل مع العمل الأدبي ذاته غير مغفل علاقته بنفس قائله، وتأثرات قائله بالبيئة، ولكنه يحتفظ للعمل الفني بقيمته الفنية المطلقة غير مقيدة بدوافع البيئة وحاجاته الملحة، كما يحتفظ لصاحبه بشخصيته الفردية [10]،

[8] عبد الجبار داود البصري: الأدب التكاملي، سلسلة الكتب الحديثة، ، وزارة الثقافة، مطبعة الجمهورية، بغداد، د.ط، 1970، ص: 53، 54.

[9] – سيد قطب: النقد الأدبي– أصوله ومناهجه– دار الشروق ، القاهرة، ط: 6، 1995، ص: 203.

[10] – نفسه، ص: 208.

وفي سنة 1948 ناقش شكري فيصل رسالة ماجستير بجامعة الملك فؤاد بالقاهرة تطرق فيها إلى مناهج الدراسة الأدبية، وقسم المناهج النقدية تقسيما سداسيا وهي: النظرية المدرسية، نظرية الفنون الأدبية، نظرية خصائص الجنس، نظرية الثقافات، نظرية المذاهب الفنية، النظرية الإقليمية، وقد انساق إلى المنهج التركيبي انطلاقا من أن هذه النظريات لاتحيط بهذا الأدب و لا تشتمل عليه، ولذلك كان لابد من هذا المنهج التركيبي الذي يقوم على وصل نتائج الدراسات المختلفة [11]،وقد تهافت النقاد والدارسون على اعتناق هذا المذهب وارتضائه بديلا منهجيا نقديا، ومنهم الدكتور محمد هدارة الذي أعلن عن منهجيته في تجربته النقدية بقوله: " أما منهجي في تحليل النصوص فهو مزيج من مناهج متعددة، منها الجمالي والنفسي والتاريخي والأسلوبي، وأرى في الاقتصار على منهج واحد حجبا لقيم نقدية كثيرة مؤثرة في تحليل النصوص" .[12]

ومن أهم النقاد الذين نادوا بالتكاملية في النقد العربي بوسائل انتقائية واعية بتجنب تويل العملية النقدية إلى خليط من المعلومات الغير المنظمة، الناقد اللبناني (سامي سويدان) في كتابه " أبحاث في النص الروائي العربي" حيث قال بقصور المنهج الواحد في الإحاطة بالنص ومعطياته، ذلك لأن النص بناء متنوع الأبعاد يقتضي أكثر من منهج للإحاطة به، وذلك هو المنهج المركب أو المتعدد، مع ضرورة تغليب منهد معين يتفق وغلبة المستوى المناظر له في النص، وقد اصطلح على ذلك بـ:(التكاملية المركزية).

كما دعا (نعيم اليافي) إلى المنهج التكاملي وأعلن انتماءه له، وتشيع له تنظيرا وممارسة، وقد سماه بالمنهج التعددي المتكامل ويعود ذلك إلى منتصف الستينات أثناء دراسته للتطور الفني لشكل القصة القصيرة في بلاد الشام، وكتابه " أوهام الحداثة" يتضمن دعوته إلى المنهج المتعدد المكثر، باعتبار أن التركيب سبيل الخلاص من أزمة وواحدية المنهج، ويفرق في ذلك بين التركيب والتلفيق

[11] – شكري فيصل: مناهج الدراسات الأدبية في الأدب العربي، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط: 3، 1982،ص: 87.

[12] – محمد هدارة :

الذي يتمثل في تلك العملية الكيميائية التي تقوم على الجمع والخلط بين المتناقضات بحيث تبقى كما هي قبل التلفيق و أثناءه وبعده، في حين أن التركيب عملية فيزيائية نوعية معقدة تقوم على الصهر والتذويب بنسب مختلفة وصولا إلى ناتج أو مركب جديد[13] ، وللمنهج التكاملي دعائم و أسس حصرها في مقاله : " في النقد التكاملي" وهي :

- الموسوعية : اي تسل الناقد بالثقافة النقدية و المعرفية العريضة التي تمكنه من الإلمام بالظاهرة الأدبية المراد دراستها.
- الانفتاح : أي انفتاح الناقد ذهنيا و نفسيا:و خروجه من شرنقة الذات لمصافحة الآخر في الزمان و المكان.
- الانتقائية :و هي من عواقب الموسوعية ،بخلاف الاحادية الضيقة التي تلزمك بالإنقياد إليها لانها لا تملك خيار آخر.
- التركيب :أي بناء مجموعة من العناصر المنتقاة وفق خطة تصورية مرسومة تشدد على طبيعة العناصر المركبة ، و طريقة التركيب ، و الغاية التي تستهدفها العملية التركيبية ، بخلاف التلفيق الذي لا يعدو أن يكون مصالة مؤقتة مهددة بالتفكك.
- النص الإبداعي و خصوصيته: التي تقتضي " المنهج المناسب للمتن المناسب".

معارضو المنهج التكاملي:

اعتبر عبد الملك مرتاض المنهج التكاملي خرافة منهجية، لذلك فهو يعلن كفره به، ويبالغ في السخرية منه، وقد وضح دعوته إلى ضرورة الانتقال من مرحلة الانطباعية إلى النقد الكلاسيكي ثم الحداثي ليصل إلى ضرورة الولوج في المرحلة التركيبية للمناهج النقدية ، وهي الجمع والمزج بين عدة مناهج انطلاقا من أن المنهج الواحد مقيد للنص وتقنياته قاصرة في الإحاطة ببنياته هذا النص الذي

[13] – نعيم اليافي: أوهاج الحداثة، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ط:1، 1993، 156.

يجب أن يظل مفتوحا إلى ما نهاية، وأن كل قارئ يمكن أن يقرأ بمنظاره أو منظوره الخاص"[14] ،وهذا التزامن بين إيمان مرتاض بالتركيب المنهجي وإصراره عليه ، وكفرانه بالمنهج التكاملي ليس من التناقض في شيء ، و إن بدى ذلك للقاريء،و تركيبية مرتاض تختلف عن تكاملية غيره في حرصه على التجانس النهجي بين عناصر التركيب، و انبناء المركبات المنهجية على قدر كبير من التوجه الابستيمولوجي، ويرى أنه من الأولى لنا " أن ننشد منهجا شموليا، ولا أقول منهجا تكامليا ، إذ لم نر أتفه من هذه الرؤية المغالطة التي تزعم أن الناقد يمكن أن يتناول النص الأدبي بمذاهب نقدية مختلفة في آن واحد، فمثل هذا المنهج مستحيل التطبيق علميا، إذ لو أردنا أن نطبقه على نص أدبي في تصورنا على الأقل فإن علينا أن ندرسه من الوجهة الاجتماعية، ثم من الوجهة البنيوية ، ثم من الوجهة الألسنية، ثم من الوجهة اللانسونية الجمالية فهل مثل هذا العمل ممكن الحدوث ؟ ... مثل هذا السلوك الفكري يشبه الشة البهلوانية التي لو طبقت في مجال العمل لأمست ضحكة هزأة سخرة إلى ما حدود له من المعاني الدالة على الضك والسخرية والاستهزاء" [15]

كما رفض سعيد علوش مصطلح التكامل، وسمى هذا المنهج بالنظرة التوفيقية المتذبذبة في مقاله المنشور في مجلة الفكر العربي : " زمن المنهج الأدبي بين جيلين"، وأما شكري عزيز الماضي فقد كانت له ملاحظات عديدة حول المنهج التكاملي ومنها:

- المنهج التكاملي يشتق مفاهيمه الأدبية من المزج بين المناهج النقدية ، وليس من الحركة الإبداعية الموضوع الأساسي للنقد)
- لا يمكن التوفيق بين المناهج المتباينة، وإخراجها في منهج يضمها معا انطلاقا من أن المنهج تعبير عن رؤية متكاملة للأدب ودوره والنقد ووظيفته.

[14] –عبد الملك مرتاض: ألف ليلة وليلة، ديوان المبوعات الجامعية، الجزائر، 1993،ص: 10.

[15] – عبد الملك مرتاض: ألف ليلة وليلة ، ص : 10.

- عملية الجمع والمزج بين هذه المناهج مع المرونة النسبية في إيثار أحدها على الآخر ستفرض الانتقاء و الاقتطاف، ولا شك أنهما ييلان على التعدد ومن ثم التشتت في المصادر مما يعني فقدان المنهج.[16]

و قد وضع الناقد يوسف وغليسي حدود للتركيب المنهجي و هي :

- يجوز التركيب بين مناهج صادرة عن رؤية نظرية موحدة، أو منطلقات و خلفيات فلسفية متقاربة أو متجانسة، لذلك نتفهم سر تركيب مرتاض بين البينوية و الأسلوبية تارة، و بين السميائية و التفكيكية تارة آخرى، كما نتفهم معايشة الناقد عبد الله محمد الغذامي بين أطراف تلك الرباعية المنهجية المنحدرة من جذر ألسن موحد .
- يجوز تكييف المنهج الواحد بمنهج إجرائي مساعد ،لا يسيء إليه بل يثريه و يغنيه ،كان يكون (المنهج الإحصائي)الذي قد يستوعبه أي منهج آخر.

2. المنهج التكاملي عند الغرب :

1. ملامح المنهج التكاملي عند "ستانلي هايمن" :[17]

- الناقد المثالي:

بدأ الإتجاه إلى المنهج المتكامل في النقد الغربي عبر أطروحة الناقد ستانلي هايمن والتي يرى من خلالها إمكانية وجود نقد تصاغ طريقته الإجرائية كالبناء وفق خطة منتظمة ذات أساس مرسوم ،وليس فقط يفرغ العناصر في قدر واحدة و خلطها، و في كتابه "النقد الأدبي ومدارسه الحديثة" طرح سؤالا ينبئ بإشكالية كبرى "هل يمكن إيجاد مذهب نقدي متكامل؟ فصرح أنه لو كان في مقدورنا —و هذا مجرد افتراض —أن نصنع ناقدا حديثا مثاليا لما كانت طريقته إلا تركيبا لكل الطرق

[16] – شكري عزيز الماضي: من إشكاليات النقد العربي الجديد، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط:1، 1997، ص: 192،193,

[17] – ستانلي هايمن: النقد الأدبي ومدارسه الحديثة ، ح:2، ترجمة : إحسان عباس، محمد يوسف نجم ، دار الثقافة، بيروت،1960، ص: 245

و الأساليب العلمية التي استغلها رفاقه الأحياء، و إذن لاستعار من جميع تلك الرسائل المتضاربة المتنافرة ، و ركب منها خلقا مستويا لا تشويه فيه،فوازن التقصير في جانب بالمغالاة في آخر و حد من الإغراق بمثله حتى يتم له التعادل، و استبقى العناصر الملائمة لتحقيق غاياته". [18]

- الناقد يتحدث عن منهج افتراضي لا وجود له يتمنى أن يتحقق في منظومة المناهج الغربية الحديثة،لذلك فهو يحاول رسم ملامح منهج نقدي يأخذ من"إدموند ميلسون " مهمة التفسير لأثر الأدبي،و من "عيزرا باوند" الاهتمام بالقيم الشعرية و الشكلية التي قد يحبها في بعض من النقد التفسيري، و من " إيفور ونترز"الآراء التقليدية و من"توماس إيليوت الاهتمام بخلق الأدب و الموروث،و الجمع بين الشعر و النقد.
- كما يأخذ الطريقة القائمة على كتابة السيرة و الاهتمام بالجو الثقافي العام للأديب من "فان ويك بروكس"،و اتجاه هايمن التكاملي يحاول أن يطرح جانبا كلما يراه تافها من غير قيمة، و قدم أمثلة لذلك سطحية "ويلسن " باستعماله لأفكار سبقه إليه غيره، و التعسف للأحكام دون علة عند "وينترز"و التحيز السياسي و المذهب عند "توماس إيليوت"،و استصفى النواحي الموضوعية لديهم بعد أن ينزع عنها ما يحيط بها من مظاهر الضعف المماكحة و الفردية.
- التخلص من الأفكار النقدية السطحية و المسبوقة .
- التخلص من الأفكار المتعسفة و المتسلطة دون علة واضحة.
- البعد عن التحيز المذهبي و السياسي.
- الحرص على استقلال النقد و تكامله مع الشعر كما هو الحال عند"إيليوت ".
- الوعي بنقائص التخصص و حدوده مع النقد.
- كما يرى أن المنهج التكاملي المثالي لا يتم بطرح كل العناصر الجيدة في قدر واحد كيفما اتفقن و لكنه بناء منظم ذو أساس و هيكل مرسوم،و أنسب المبادئ ، لإنجاز هذه المهمة —كما يرى

[18] – المصدر السابق ، ص: 245.

– هي المركسية التي يلح المدافعون و المتبنون لها على اعتبار المادية الدياليكتيكية إطارا متكاملا يستطيع أن يختص و يستغل الحدث ضروب التقدم في كل ميادين المعرفة ، وهي في الحقيقة لابد لفعل ذلك لتستمر في تأدية مهمتها.

- احتذى "هايمن"في منهجه التكاملي حذو "ماركس"و"أنجليز"اللذين كانا يحيطان بكم غزير من المعرفة في كل علم.
- وطرح أخيرا المشكلة التي لابد أن يواجهها ناقده المثالي– وهي أشد المشكلات هيمنة– و تتلخص في أن كل طريقة

من الطرق التي طورها النقاد المحدثون لا تزال في مرحلة أولية من الكشف و لابد لهم أن يتبينو ذات يوم أنهم لم يفعلو شيئا اكثر من خدش السطح الخارجي، وأن أعمارهم لن تمكنهم من الذهاب وراء ذلك ، غير أن كل طريقة يمكن امتدادها إلى مالا نهاية و ليس لناقد المثالي أن يستعمل تلك الطرق فحسب بل عليه أن ينمي كل واحدة منها تنمية بالغة فيحل مشكلات كل طريقة و يسوي بينها و بين نتائجها ، و عليه أن يقوم بذلك كله وحده .

- الناقد الواقعي: بعد التحليق حول الناقد المثالي يؤكد"هايمن" أن الحديث عن هذا الناقد مجرد شقشقة لسانية افتراضية صعبة التحقق ،و لكنها مفيدة في رسم معالم هذا النقد و النقاد، فهو يعود إلى عالم الحقائق و مجال الإمكانات العملية ، فيقرر ان كثير من التكامل ممكن و قدم أمثلة لذلك ك(كينث بيرك) الذي تنقل بين كل الأدوار التي شملها النقد الحديث ، و (ريتش ريشاردز) و (رامبسون) و (بلاكمور) ، أقل ذلك لأنهم عزفوا عن التركيب بين الطرق النقدية ، و كانوا أحاديوا التوجه ، ويرى "هايمن" أن هؤلاء النقاد كان التكامل موفقا في أعمالهم ، و لكنهم حادوا عن التكامل الكلي النظري الذي يحتاجو جهودا لا حدود لها ، و قد قاعدتهم في ذلك:

- عدم الاستغراق و المواصلة في استيقائهم لوسائلهم إالى آخرها، بل إلى حد ما يقيفون عنده، غذ يجدونها توحي بإمكانات جديدة .
- الإلحاح على تلك الوسائل المثمرة، و إهمال أو التقليل من الوسائل الأخرى مع الحرص على استغلالها في مناسبات أخرى و لكنه يشير إالى أن هناك عقبات كثيرة تعترض النقاد في سبيل تحقيق التعمق في النقد لعدة أسباب من ضمنها أنه من العسير أن يتقن الناقد كل فرع من فروع المعرفة تفيد في ميدان النقد الأدبي بل سيغدو ذلك مستحيل .
- يقرر أيضا أن العلوم الاجتماعية ستنمو نموا كبيرا وأن دراسة فرع واد منها سيأخذ وقتا طويلا إذا أريد تسلسطها على النقد الأدبي و ستغطي على دراسة الأدب تغطية تكاد تكون كاملة .
- يفرق بين الناقد المتخصص الذي يطور طريقته في البحث والنقد و الناقد البيكوني الذي لا يستطيع أن يعيش في عصر يدق فيه التخصص على مر الأيام.
- يرى أن ضيق التخصص لدى النقاد يجعلهم مشوّهين للأدب، ويقسمهم إلى قسمين: إما أن يكونوا محدودوا الآفاق ليس بإمكانهم إلا أن يقوموا بشيء واحد يتقنونه ويعجزون عما سواه ، وقد مثل لهم بـ " إدموند ولسن" في التفسير و" فان ويك بروكس" في كتابة التراجم، وهذا الصنف من النقاد يفيدون مسار النقد في حالتين: حين يتخصصون في الأدب الذي تلائمه طريقتهم ومعارفهم، وكمثال على ذلكتخصص مدرسة كامبريدج في دراسة الأدب الإغريقي ، ذلك لأن الصلة بين هذا الأدب وبين التفسيرات الشعائرية وثيقة ، وحين يتخصصون في تلك الجوانب من الآداب التي إن سلطوا عليها مبادئهم وأفكارهم ، وضحتها في تفاعل النقاد التفسيريون والماركسيون أو كما يجب أن يفعلوا.
- يدعو (هايمن) إلى ضرورة وجود العمل التعاوني في النقد ليكون مجديا ومثمرا،أو ما يسمى بالنقد الجماعي ، وقد مثل له بمقال (توماس إليوت) " تجربة في النقد" والذي نشر في مجلة (Bookman) عدد أكتوبر سنة 1929، وقد أشار إلى تعاون النقاد ذوي الدربة المختلفة ،

ثم قيام أناس لاهم متخصصون ، ولا هواة باستخلاص ما يسهمون به وتكديسه وتصنيفه، وقد عمد إلى تسميته باسم المأدبة (symposium)، وهذه اللفظة التي تحمل بين ثناياها حروف كلمة أدب ، وقد مثل لها بالمجلات المتخصصة التي تنفرد بدراسات متنوعة ومتعددة و متكاملة لآثاره أو لأثر واحد له، أشار إلى أن هذه المآدب تتنوع في الثراء ، فمنها حقيقية الثراء ومنها الخادعة ، ومن أهم المشاكل التي تعترض هذه المآدب:

- يسأنها لا تحفل بالتخصص الكافي لأن النقاد المسهمين فيها لا يكون عن بصيرة بل يكون عرضا.
- قد تتداخل المقالات وتتشابه مما يجعلها غير ممثلة لجميع المذاهب والوجهات.
- يحدد هايمن الطرق المثلى لتحقيق ذلك عمليا وفق حالتين هما:

المجلة: يدعو هايمن إلى إنشاء مجلات متخصصة تخصص بعض أعدادها لدراسة شخص واحد أو موضوع واحد ولكن الأمر لن يسلم من عدة مشاكل على رأسها :

- صعوبة السيطرة على كامل المواضيع والطرق، وفرض حدود صارمة على النقاد والمحترفين الذين يخرجون عن تلك الحدود استطرادا.
- عدم توفر المال الكافي.
- صعوبة تحديد أصناف النقاد والمفاضلة بينهم.

الجامعات: ومن أمثلة ذلك نشر مطبعة "برلستون" لعدة سلاسل من البحوث في الأدب والعلوم الإنسانية منها : غاية الفنان، وغاية الناقد، ولغة الشعر.

الفصل الدراسي المنعقد بجامعة كولومبيا بإشراف " نورمان هولمزبيرسون" ، حيث تحدث فيه أربعة من النقاد حول قصيدة واحدة لوورد زورث وهي : immor tality old on intimations of، قصيدة على تلميحات الخلود وهم (هوراس غريغوري)، (ليونال ترلنج) (كلينث بروكس)، (فريدريك بوتل).

2. خصائص وسمات المنهج التكاملي:

- يرفض أنصار المنهج التكاملي التقوقع في منهج واحد .
- يتفرع النقد التكاملي إلى ثلاثة أنماط " النقد التعددي الذي يتناول النص من جميع الجوانب ، ويحتفظ في نطاق هذا التناول بالجهاز المعرفي لكل منهج ، والنقد الانتقالي الذي يختار المنهج المناسب للنص ويحتفظ هو الآخر في حدود الاختيار بالجهاز المعرفي مفهوما ومصطلحا لكل منهج".[19]
- تتداخل في المنهج التكاملي خاصيتان هما: التعددية، والحوارية تتشابكان ، وتتلازمان، إذ لا يمكن أن نتحدث عن التعددية إلا إذا توسلت بالحوار، ولا يمكن أن يتم الحوار إلا إذا كان ثمة تعددية.[20]
- الوعي بطرائق التحليل الداخلي لبنيات النص والإحاطة بصوره ودلالاته وبنياته.
- الإحاطة بالأنساق والسياقات الاجنماعية والتاريخية والجوانب النفسية التي تحكم بنية النصوص ونوجهها .

3. عيوب ومآخذ المنهج التكاملي:

- من أولى عيوب المنهج التكاملي أنه يذيب التخصص في النقد ، لذا تطغى على النص النقدي العموميات والسطحية.
- من المستحيل أن يحيط الناقد بكل قنوات التحليل ، فكل طريقة من الطرق التي طورها النقاد المحدثون لا تزال في مرحلة أولية من الكشف ، ولابد للنقاد أن يتبينوا أنهم لم يفعلوا شيئا أكثر من خدش السطح الخارجي .[21]

- [19] سليم سعدلي: المنهج التكاملي بين الرفض والقبول، مجلة الممارسات اللغوية، مخبر الممارسات اللغوية،تيزي وزو، الجزائر، ع:17،2012، ص: 6.
- [20] نعيم اليافي: النقد التكاملي ، الأسبوع الأدبي ، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سوريا، العدد:39 ،1992، ص : 3.

- من المستحيل أن يحيط الناقد بكل قنوات التحليل" فخيرة نقادنا هؤلاء لم يستطيعوا حتى ضمن هذه الحدود أن يجيدوا ندحة من الزمان و المكان تمكنهم من أن يتعمقوا حسب ما يرغبون، لان باعهم في العلم و المعرفة مهما اتسع لا يفى بما يريدون و سيغدو من العسير في المستقبل أن يتقن الناقد كل فرع من فروع المعرفة يفيد في ميدان النقد الأدبي، بل سيغدو أمرا مستحيلا ".[22]

4. طريقة دراسة و نقد أثر أدبي و فقا لمنهج "هايمن " التكاملي:

يقول "هايمن " إذا تحدث الناقد عن قصيدة غنائية قصيرة كتب عدة مجلدات،و إذا تناول أثرا طويلا كالقصيدة المطولة أو المسرحية أو القصة أنفق عمرا طويلا في دراستها ، لذا فهو يعدد بعض المراحل و الخطوات التي يتناولها الناقد و هي:

- ترجمة المحتوى قدر الإمكان و تلخيصه ،و يشير إلى أن ترجمة المحتوى الشعري نثرا أكبر قيمة بكثير من العمل نفسه.
- عقد مقارنة ومشابهة بين العمل المدروس ورده إلى مصادره، ومشابهاته في الآداب القديمة قصد المقارنة بين الآثار المعاصرة والسابقة، سواء أكانت داخلة في الموروث أو لا، و تحليلها تحليلا وافيا بنسبة ما يتوفر من فكره وحياته ، وشخصيته، وأسرته ، وما يهواه، وكل ما يحيط به ، وعلاقاته الاجتماعية ومظهره الجسماني وعاداته .
- تفسير القصيدة من حيث أنها مظهر اجتماعي تنعكس فيه طبقات صاحبها، و منزلته الاجتماعية ، وكل ما يتعلق بها، و جوّ الأفكار التي تعيش معه.

- [21]ستانلي هايمن : النقد الدبي ومدارسه الحديثة، ج:22، ص: 252.
- [22]نفسه، ص: 255.

- الغوص في دواخل القصيدة المتمثلة في دواخلها المنسية وألفاظها ومعانيها ، والعلاقات بين الألفاظ و صورها و رموزها، وكل إحاءاتها ، وشكلها، وما فيها من ضروب الجرس، و البناء الإيقاعي ، والتأثيرات الموسيقية ، وطبيعة الحركة والتناسق فيها.

خاتمة:

بعد استقصاء آراء النقاد العرب المتعددة والغرب عند "ستانلي هايمن" يتبين أن هدف هؤلاء النقاد كان محاولة الوصول إلى منهج يتناول العمل الأدبي من جميع جوانبه، و إصدار أحكام متكاملة عنه بنظرة تتلاحم وتتعاضد فيها عدة مناهج ،انطلاقا من أن المنهج الواحد قاصر في تناول العمل الأدبي و الإحاطة به، ومن ثم فالأحكام تكون نسبية ولا تمثل الواقع ، و لكن أغلب النقاد فشلوا في إيجاد منهج بهذه المواصفات ، وتبين لهم أنه لا يعدوا أن يكون وهما، وطموحا لا يتحقق و اعتبره آخرون بدعة نقدية وخرافة .

إن إيجاد نظرية نقدية شاملة تحيط بالعمل الأدبي من جميع الجوانب ليس بالأمر المعجز، و المشكلة لا تتوقف على النقد العربي فقط، وإنما هذه القضية مطروحة في النقد الأجنبي أيضا ، ويبقى الرأي الأقرب إلى الصواب، و الأجدى و الذي يرجى أن يثمر إذا ما اتجه إليه النقاد هو ما ذهب إليه "ستانلي هايمن "فيما سمي بالنقاد المتخصيصين الذين يحسنون طريقة واحدة مطورة و هم مفيدون أشد الإفادة و لكن في حالتين:

- حين يتخصصون في الأدب الذي تلائمه طريقته و معارفه أو حينما يتخصصون في تلك الجوانب من الآداب التي إن سلطوا عليها مبادئهم و أفكارهم وضحتها و جلتها و يجب ان يعزز بما يسمى بالنقد التعاوني أو النقد الجماعي ، و هذا النقد هو حلم جملة من النقاد من أمثال (توماس ايليوت)، (و ستانلي هايمن) نفسه، حيث تتظافر فيه أقلام المتخصيصين على نحو مخطط و منظم بدراسة النتاج الأدبي لأديب معين من مختلف الجوانب، فذلك

يسمح بالإحاطة بالأعمال الادبية ،و الوسائل المساعدة على ذلك هي :المجلات المتخصصة و الجامعات.

قائمة المراجع المعتمدة:

1. إبراهيم أحمد ملحم: النقد التكاملي – إشكالية الخطاب– عالم الكتب للنشر والتوزيع ، الأردن، ط: 1، 2014.

2. عبد الجبار داود البصري: الأدب التكاملي، سلسلة الكتب الحديثة، ، وزارة الثقافة، مطبعة الجمهورية، بغداد، د.ط، 1970.

3. ستانلي هايمن: النقد الأدبي ومدارسه الحديثة ، ح:2، ترجمة : إحسان عباس، محمد يوسف نجم، دار الثقافة، بيروت،1960.

4. سليم سعدي: المنهج التكاملي بين الرفض والقبول،

5. سمير سعد جازي: النقد الأدبي المعاصر، دار التوفيق للطباعة والنشر والتوزيع ، عمان ، الأردن، ط: 1، 2007.

6. سيد قطب: النقد الأدبي– أصوله ومناهجه– دار الشروق ، القاهرة، ط: 6، 1995.

7. شكري عزيز الماضي: من إشكاليات النقد العربي الجديد، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط:1، 1997.

8. شكري فيصل: مناهج الدراسات الأدبية في الأدب العربي، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط: 3، 1982.

9. عبد الملك مرتاض: التحليل السيميائي للخطاب الشعري– تحليل مستوياتي لقصيدة شناشيل ابنة الحلبي.

10. نازك الملائكة: قضايا الشعر المعاصر ، دار العلم للملاين ، بيروت ،لبنان ،ط:5 ، 1978.

11. نعيم اليافي: النقد التكاملي ، الأسبوع الأدبي ، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سوريا، العدد:39،1992.

12. نعيم اليافي: أوهاج الحداثة، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ط:1، 1993.

13. يوسف وغليسي: مناهج النقد الأدبي " مفاهيمها ، أسسها، تاريخها، روادها ، وتطبيقاتها العربية" جسور للنشر والتوزيع ، الجزائر، ط: 1، 2000.